أبو أيوب الأنصاري في رحلة العمر

ذ. عبد الحميد الأنصاري
(طالب باحث في الدراسات الإسلامية، وشقيق د. فريد الأنصاري، رحمه الله)

النسب والنشأة

(بحاير الأنصار): قصر قديم في واحة تافيلالت، لم يبق منه إلا أطلال، قدر الله عليه سيلا فرق أهله في أرجاء الواحة.

وكان من النازحين **محمد بن المكي القاضي**، الذي نزل في **(الجرف)** فقيها على طريقة الشرط، وَلد له حسن الضرير الفقيه العالم أبو محمد أبي **حسن أبي فريد الأنصاري**.

كان أبو أيوب الأنصاري يُرجع نسبه، بناء على بحث قام به بنفسه، **إلى الصحابي الجليل سعد بن عبادة** ﷺ.

وُلد فريد الأنصاري، رحمه الله، في التاسع عشر من ربيع الثاني، سنة ثمانين وثلاثمائة وألف هجرية، الموافقة لسنة ستين وتسعمائة وألف للميلاد، في قرية **(أنيف)، إذ كان والده، خريج القرويين، معلما هناك**.

وكان، رحمه الله، يُرجع الفضل في بذرة التدين فيه، **إلى والدته عائشة مهاجر**، رحمها الله، التي تربت في حجر جدتها **لأمها الأمازيغية** التي لم تكن تفتر عن الذكر.

نشأ في صغره، **يجيد الأمازيغية ويتكلم بها**، واحتفظ بقدرته على فهمها في كبره، وإن كان نسي الإفصاح بها!

انتقلت العائلة بعدُ إلى **(الجرف)**، ونشأ أبو أيوب بقية طفولته هناك، في جو عائلي وبيئي شبيه جدا بما كتب في **(كشف المحجوب)**، فالبيت الموصوف في الرواية، بمن فيه، يكاد يكون بيت جده.

بدايات الرحلة

أتم تعليمه الابتدائي سنة (1974 م)، وقد حكى الأستاذ أن والده، رحمهما الله، أسقطه في هذه المرحلة سنتين اثنتين تشديدا منه عليه في التأهيل العلمي!

وبانتقاله، رحمه الله، **إلى المرحلة الإعدادية** كان عليه أن يغادر البيت إلى بلدة (أرفود) القريبة، فأقام مدة **في بيت عمته**، ومدة في **السكن الداخلي** التابع للمؤسسة التعليمية.

كان شغوفا بالقراءة، فلم تكن أنامله تهمل أي كتاب تقع عليه من أن تتصفحه إلى أن تأتي على تمامه، قراءة، وهو في المرحلة الإعدادية، كتاب **(في الشعر الجاهلي)**، وروايات **المنفلوطي**، وروايات جرجي زيدان...

وبانتقاله **إلى المرحلة الثانوية** سنة (1978 م)، التي درسها في بلدة **(كلميمة)**، كان له أول **احتكاك عملي مع فكرة الدعوة الإسلامية**: ففي سنته الأولى من هذه المرحلة الدراسية، وفي حجرة من السكن الداخلي للمؤسسة التعليمية، كان يجالس عفوا بعض التلاميذ، فشرع أحدهم يتحدث عن الحركة الإسلامية، مجتهدا في الدعوة لفكرتها، إلا أنه بدا لأبي أيوب، رحمه الله، أن جليسه أساء من حيث أراد أن يحسن، فرد عليه مصححا بناء على المعلومات التي استقاها من قراءاته، ثم بعد مدة ليست بالطويلة من ذلك النقاش، اتصل بأبي أيوب صاحبه الذي تكلم عن الحركة الإسلامية، وعرض عليه أن يطبقوا ما تناقشوا حوله، فاستحسن أبو أيوب الفكرة، واتصل ببعض أصدقائه ممن ينحدرون معه من نفس القرية، وعرض عليهم فكرة أن (يصنعوا) شيئا اسمه (الإخوان المسلمون)! فتحمسوا لذلك كثيرا، كما حكى رحمه الله.

كان من أهم ما زادهم آنذاك في جلساتهم **أشرطة الشيخ عبد الحميد كشك**، كانوا يجتمعون عليها ليلا، والظاهر مما كان يحكي، رحمه الله، أن الأمر يتعلق بتصرف عفوي من يافعين، وليس بتنظيم له برنامج واضح.

ومن الوسائل التي كانوا يستعملونها في نشاطهم الدعوي، **مجلة تُكتب في دفتر** يتداولونه بينهم، وكان أبو أيوب، رحمه الله، **صاحب فكرتها والمشرف عليها**.

عندما ختم، رحمه الله، تعليمه الثانوي سنة (1981 م)، وفي العطلة الصيفية، باع دراجته العادية، وسافر، دون أن يخبر أحدا من أهله، **إلى مخيم بالعرائش**.. كان المفروض أن يمكث أسبوعا أو ما يقارب، لكنه آثر الاستزادة، **فجعل يخيم مع كل فوج يجيء إلى أن أتم شهرا**. وقد كان أول مخيم له في حياته، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

في رحاب الجامعة

التحق، رحمه الله، بالجامعة في (ظهر المهراز) بفاس، سنة (1981 م)، وهي السنة الثانية من تأسيس شعبة الدراسات الإسلامية، فاختارها مسلكا علميا له.

بدأ مرحلته الجامعية متشبعا بالفكر السلفي وبفكر تقي الدين الهلالي وصداه، رغم أن الطابع الغالب على **محيطه العائلي كان ميالا إلى السلوك الصوفي على الطريقة التيجانية**.

فقدر الله أن التقى، أول من التقى، بإخوة من **جماعة الدعوة** فعاشرهم سنته الأولى، وفي هذه السنة **ألقى أول درس** له في مسجد قريب من الجامعة. حكى، رحمه الله، أنه تحرج من ذلك كثيرا وطلب الإعفاء، لكنه لم يُعف، وكان الموضوع حول شخصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فحدث، بين التكليف بالموضوع وإلقائه، أن سافر في عطلة وسط السنة الدراسية إلى قرية (أنيف) مسقط رأسه، وأعد هناك درسه في جبل صغير مطل على القرية، معتمدا على (عبقرية عمر ﷺ) للعقاد.

وكان هذا الدرس أول تجربة دعوية له، رحمه الله، تركت آثارا على شخصيته، وقوت ثقته بنفسه.

ثم بعد ذلك التقى **بشباب من (الشبيبة الإسلامية)، فصاحبهم بضعة أشهر**، لكن نفّره منهم، حسب ما روى رحمه الله عن نفسه، أنهم كانوا يعلنون عن أهداف ضخمة، وعملهم أقل بكثير من أهدافهم التي يدّعون، **فغادرهم بسلام**.

كان في سكنه الجامعي بفاس **مخالطا لشباب جماعة الدعوة بفاس، وشباب الجمعية الإسلامية بالقصر الكبير**، فغلب عليه مسارهم ولزمهم، وبقي يحفظ رقم غرفته، التي كان الإخوة يتناوبون عليها.. كانوا يسمونها كما يروي، رحمه الله: **(الزاوية)**.

ويُحكى عنه، أنه **كان من حين لآخر، يأخذ فراشه، ويذهب إلى مقر رجال التبليغ**، فيبيت معهم.

حكى عن نفسه، رحمه الله، أنه **لم يترك ديوان شعر في مكتبة الكلية لم يقرأه**، وحفظ من الشعر الكثير، ثم نسيه على عادة الشعراء في تعلم صناعة الشعر.

بدأ كتابة الشعر وهو في المرحلة الثانوية، وفحل وهو طالب في الجامعة، فأرسل في هذه الفترة قصيدة لإحدى المجلات المغربية، فلم تُنشر، وأجيب في ركن الردود: (نتمنى أن تكون هذه القصيدة لك!)، والظاهر من روايته، رحمه الله، أن المشرف على المجلة كان يعرفه!

لم يُرو عنه أنه تولى أي مسؤولية تنظيمية في مرحلته الجامعية قبل شهادة الإجازة، بل كان متفرغا لتثقيف نفسه، وكان يجتمع مع الإخوان على مذاكرة نصوص الوحي، ثم ينصرف إلى برنامجه الخاص.

وكان، رحمه الله، ينصح صراحة من يريد تكوين نفسه ألا يعتمد على ما تقدمه له هذه الجماعة أو تلك، بل يشمر عن ساعد الجد ويسلك دربا عصاميا، دون أن يتجافى عن موارد الخير أينما كانت.

هذا مع العلم بأنه يرى أن أهم وظيفة على الحركات الإسلامية الاضطلاع بها، هي وظيفة (إنتاج العلماء)، إذ هي الضمانة الوحيدة لاستمرار التدين وجودا، ورشداً ومنهجا.

في غمار البحث العلمي

بمجرد حصوله على شهادة الإجازة سنة (1985 م)، رحمه الله، حصل على امتياز **منحة دراسية لإتمام الدراسة في فرنسا**، لكنه نظر للأمر نظرا مقاصديا، فآثر السير في طلب العلم الشرعي، حيث الجودة فيه، هنا في المغرب، لا هناك في الغرب.

تيسر له الالتحاق بما كان يُسمى **(تكوين المكونين)**، وحينها بدأ مشوار البحث العلمي الجاد.

في السنة الثانية من (تكوين المكونين)، سنة (1986/1987 م)، **قدر الله له أن يختار الإمام أبا إسحاق الشاطبي موضوعا ومنهلا، والأستاذ الدكتور الشاهد البوشيخي مرشدا ومشرفا، والدراسة المصطلحية أداة ومنهجا**، ثم واصل على هذا المنوال في بحث الدكتوراه حتى ناقشها سنة (1999 م).

يحكي، رحمه الله، عن منهجه في التعامل مع البحث، أنه كان يأخذ فيه بسنة التعامل مع العبادة، فلم يكن يغلو ولا يجفو. إذ كثير من الباحثين تجدهم ينكبون على بحوثهم انكبابا عظيما، فيُسهرون ليلهم، وينقطعون له انقطاعا، حتى إذا مرت مدة من الزمن، انقطعوا عما كانوا فيه، وبقوا على فترتهم تلك إلى أجل غير معلوم، فلما يستأنفون يستأنفون من البدء كما لو لم يكن لهم سابق عهد بموضوعهم وبحثهم.

كان يحذر الباحثين من هذا الأسلوب، أسلوب الموسمية في التعامل مع البحث، فليس الأهم أن يقرأ الطالب كثيرا، بقدر ما الأهم أن يقارب بين فترات قراءاته، حتى لا ينقطع له خيط النور العلمي، ويتشتت عليه موضوع بحثه. هذا أول رهان على الباحث أن يكسبه في تعامله مع البحث؛ بإتقان طريقة **المراوحة بين الاستراحة والبحث**، فيتصيد أوقات نشاطه ويعمل فيها، فإن تعب استراح إلى حين تجدد الشرة.

كان، رحمه الله، قد يسهر ليلة كاملة على بحث مسألة، لكنه لم يكن يتخذ ذلك ديدنا مستمرا، بل **كان معتدلا، يترك الكتابة والفهم يأتيان على سجيتهما**، ولم يكن يتكلفها تكلف المُنْبَتّ.

وهذه الطريقة المستلهمة من السنة، هي الكفيلة بأن تجعل الباحث تنهال عليه الإشراقات دون أن يتكلفها، وفي جميع أحواله المعيشية، من أكل وشرب واستراحة... تروي عنه زوجه أنه **قد ينهض من فراش النوم ليلا، فيدون بضعة أسطر، ثم يرجع للنوم بعدها! ويقول إن مثل هذه الخواطر كالنفحات، من لم يقيدها بقيد الكتابة في وقتها، فقد لن تتاتى له بعدُ أبدا!**

من يقرأ أي مؤلف لفريد الأنصاري يستحلي أسلوبه ويستلذه، ويجد نفسه يقرأ كثيرا مستزيدا، ولا شك أن قراءاته الأدبية كان لها أثر بالغ في ذلك، إلا انه معروف أن الكاتب البليغ غالبا ما يكون له أصل يستقي منه خصائص أسلوبه، بسبب كثرة معاشرته له قراءة وتتلمذا، وأحسب أن لو حاولنا تقريبا وتسديدا، نسبة أسلوب أبي أيوب الأنصاري لأصل مال إليه، لكان أبا إسحاق الشاطبي، وليس هذا اعتمادا على كونه صحبه في بحوثه زمانا فقط، ولكن بالنظر إلى التشابه الخصائصي بين الأسلوبين، فأسلوب الإمام الشاطبي امتزجت فيه الفحولة مع السهولة امتزاجا طبعه ببصمة خاصة، وهو من النوع الذي قد تستطيع التعرف على صاحبه، على فرض أنه مغيب عنك، اعتمادا فقط على قراءة نصه، فتتعرف من الأثر على الصانع. وهذه الخصائص عينها واضحة أيضا في أسلوب فريد الأنصاري، وهي ما تسمه بتميزه وفرادته.

يؤكد هذا ما كان، رحمه الله، ينصح به طلبة الدراسات الشرعية من قراءة كتب المتقدمين من مفسرين وأصوليين وفقهاء، حتى يرتاضوا على أساليب البلاغة، كان يقول بأن فيها غنية عن كتب الأدب، وكثيرون صلب عود الكتابة لديهم بهذا المسلك، **و(صحبة الفحول تفحّل)** كما يقول أ.د. الشاهد البوشيخي.

كان، رحمه الله، يرقن كتبه مباشرة على الحاسوب، وقد اتخذ حاسوبا منذ منتصف التسعينات، إذ كان يستعمل (الماكينطوش) في الأول، كان يقول عن مؤلفاته بأنها تخرج من المطبعة طبقا للصورة التي يراها عليها وهي ملفات (وورد) ينظر إليها بين يديه، وكان يثني على ما وفره الله له بهذه التقنية الحديثة، التي مكنته من التحكم في الإخراج النهائي لكتبه وهي في مرحلة التدوين.

ومن أواخر ما اشتغل به، رحمه الله، من البحوث، **تحقيق كتاب (القوانين الفقهية) لابن جزي**، فقبل أكثر من سنتين من وفاته، كان بلغ منتصف الكتاب تحقيقا، وكان يشتغل بمعدل صفحة في اليوم، وكانت نيته، رحمه الله، متجهة إلى تضمين عمله شرحا للكتاب أيضا، فكما قال، بدلا من أن يؤلف كتابا في الفقه المالكي، اختار أن يشتغل على تحقيق (القوانين الفقهية) ثم يشرحه؛ فيكون قد أتى بمجامع الخير.

وعند مرضه، رحمه الله، أوقف كل مشاريعه العلمية، وانقطع إلى تفسير كتاب الله، وكأنه، رحمه الله، كان يسابق الموت!

بدأ، رحمه الله، مسيرة الكتابة شاعرا، وانتهى مفسرا: ختم الله له عمله مشتغلا بتفسير سورة آل عمران، بعد أن أتم تفسير البقرة وبعض سور المفصل.

مسيرة العروج نحو القرآن

إن السلفية المنهجية في فقه الدين قد قادت أبا أيوب الأنصاري إلى الرسو في مرابع القرآن.

أستطيع القول بأنه، على مستوى التصور الفكري العام، لم يحدث انعطاف منهجي كبير في فكر الأستاذ فريد الأنصاري رحمه الله.

إن أول انطلاقة دعوية كانت له، رحمه الله، بعدما صار **من منظري الدعوة الإسلامية**، كانت بالاشتغال على مفهوم (التوحيد والوساطة)، الذي يرتكز على فكرة واضحة وعميقة، هي التشديد على أن يكون القرآن أساس التربية لدى الحركة الإسلامية، فلا يُخلط بشيء ينافسه، ولا يُتوسط إليه بشيء يحجبه، وقد كان هذا

تتمة: ص 23